## -٨-

# محمد على الطاهر

## ١٨٩٠ - ١٩٧٢

هذا الاسم الكبير يتجاوب صداه فى العالم العربى كما يتجاوب الصدى بين الجبال الشامخة، ويتردد ذكره ورأيه فى محافل الفكر والوطنية، كما يتردد المثل الطيب والكلمة المأثورة.

لقد حمل السيد محمد على الطاهر، منذ كان فتى صغيراً يتلقى المعرفة والادب ويحس ما تعانيه العروبة من هموم، فكرة كبيرة دبت فى مزاجه وشعوره وسيطرت على وعيه المبكر ووطنيته إنه هو نفسه لا يعرف على التحديد حتى تمكنت منه تلك الفكرة الضخمة التى شبت معه وعاشت فيه على الحداثةوفى الرجولة، يحملها فى ضخامتها ونحافة جسمه وطول مراسه ولا يحس فى ثقلها الا العزة والقوة، لأن نفسه الكبيرة هى التى حملت اعباء الفكرة واعتنقتها، فكأنه الوصى عليها، بينه وبينها عهد قديم شهد عليه جهاده الذى لم يفتر يوماً، فقد نصب عمره للفكرة التحررية، لايبالى أن يشرد من أجلها وأن يلقى الدواهى فى سبيلها، ومتى آمن المرء بفكرته وعاش لها تمازج فيها ودلت عليه، وقد شاع اليوم فى رأى العالم العربى

وصف المجاهد محمد علي الطاهر بفكرة الوطنية المتوقدة، وانها لفكرة مجردة مجنحة تبدو فى ذاته وصفاته شفافة متوهجة، فهى تتطل من عينيه النافذتين وتحسها فى نبراته ولهجته، وتراها فى حركاته واشاراته، والطاهر نفسه لوسئل عن سرها لما أحار جواباً، لأنها أعم من حسه واقوى من نفسه.

ان رواسب الاستعمار وبقايا عهده ما تزال تجرى فى دماء كثير من مدعى الجهاد ومحترفى السياسة والوطنية منها نسجت الظروف على شخوصهم ومأربهم ستائر التمويه والمغالطة، وكان من حظ الطاهر ان يسلم دمه من هذا الرسوب الوبيل الذى جعل المتلونين والمستغلين كدليل الرياح الذى يدور مع الهواء حيث دار.

أما فكرة المجاهد الطاهر التى ولدت نقية مرة وعاشت فيه قوية متأججة فقد رافقته فى مقره ورحيله وفى ليله ونهاره، ومن جرائها ضاقت عليه الأرض التى أنبتته وأعدته للأيام العصبية، فانطلق من نابلس قبيل الحرب العالمية الأولى فتى تائراً يتأبى على الخمول والتربص ويتحرى لفكرته وحريته نوراً جديداً دافقاً رحيباً، فنزل القاهرة كما نزلها من قبل ومن بعد أعلام الفكر وأحرار الرأى الذين وجدوا فى حماها سكناً وأهلا، وقد كان فى انداد الطاهر من افذاذ المصريين لهيب من الثورة على المحتلين. وكانت الكنانة فى ذلك الحين تضج باحداث « دنشواى » وما خلفت وراءها، ويعيش شبابها المتنور بتعاليم مصطفى كامل وصحبه ، فازداد الفتى الطاهر حمية

ونخوة وعزماً، ومضى فى غمرة النضال يدعو لانقاذ فلسطين من غد أسود وعدو يتوعد، ولم يفتر سعيه عن المشاركة فى حركة التبصير والتحرير ومناوأة المستعمر الذى رصد عيونه المتدسسة لتقصى مشاعل الثورة واطفائها بالقمع والحبس والتشريد.

ولم ينج السيد محمد علي الطاهر من السجن عام ١٩١٥، لكن هذه الشدة من المستعمر ما كانت الالتزيد فكرته حدة وتوقداً، فكان يودعها دعوات لليقظة والحذر، ومقالات تحررية وطنية، نشر أكثرها بجريدة « اللواء المصرى » وقد اتخذ التجارة للمعيشة وما هو بسبيله من السعى الى اذاعة العروبة والتأهب للكفاح، حتى غدا متجره المتواضع ملتقى الاحرار ورجال السياسة المشردين من مصر والشام وبلاد المغرب والعراق، فيهم شيخ العروبة أحمد زكى والرئيس شكرى القوتلى، وأعلام الجهاد الوطنى والفكرى: رياض الصلح ونبيه العظمة واميل الخورى وعادل أرسلان ومنصور فهمى ومحمود عزمى، والزنكلونى والسمالوطى والثعالبى التونسى وعمر المختار الليبى وغيرهم كثير ممن كانوا يتخذون مصر ملجأهم ومرصداً لجهادهم حتى احسوا الحاجة ماسة الى صحيفة حرة تعبر عن مشاعرهم وتفكيرهم، وتبصر القوم بقضايا مصر والبلاد العربية مع الغاصبين، فبادر الطاهر إلى انشاء « الشورى » لتكون صوت الفكرة التى يؤديها من ضفاف النيل الى كل بلد عربى يكابد الويل والمحن فى سبيل الاستقلال والى مهاجر العرب فى امريكة وافريقية حيث يتنادى المجاهدون منهم وحملة الأقلام لنصرة الوطن الذى يناديهم،

ولقد ضاق أعوان المحتلين بجريدة الطاهر التى لقيت التأييد والاقبال والتجاوب، وكان هذا الصحافي الذئب مثابراً على تأييد رسالته بالرغم من كل ازمة ورقابة، فكانت « الشورى » تتسلل الى البيوت والمجالس، وتتغلغل بين الاحرار والمجاهدين حاملة انباءهم واراءهم فى المشكلات القومية الراهنة والمساعى الوطنية فى بلادهم وظاهرها، ولم يخف على الحكم الغاشم خطر هذه الجريدة الحرة، فالحق الكيد بصاحبها وهو ماض فى فكرته وجهاده غير عابئ بما أصابه من العابثين بحقوق الوطن، حتى زار مصر « بلفور » صاحب الوعد المشؤوم، واحتفى بقدومه بعض السياسة، فهب الطاهر غاضباً فى تظاهر مع رفاقه، هاتفاً، بسقوط الزائر المداور، لكن الحكومة قمعت غضبه والقته بالسجن فازدادت ثورته على الغاشمين المراوغين، ولم تزده النقمة والمساءة الامضياً فى فكرته التى اخذت سبيلها الى القلوب الواعية والنفوس الحرة فى الجيل الصاعد.

وفى مصر اسس المجاهد الطاهر مركزاً لمصلحة فلسطين جعله وسيلة الاتصال بين وفدها فى لندن برئاسة موسى كاظم الحسينى وبين وفد سورية برئاسة شكيب ارسلان وذلك ما بين عام ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ كما اتخذه رابطة بين المجاهد الثعالبى وبين تونس والمغرب العربى.

وفى خلال هذا الدأب والنضال كان الصحافي الطاهر فى القاهرة مثابراً على الدعوة لحرية مصر والبلاد العربية بمقالاته الثائرة المبصرة، وبأقلام الأقطاب من المفكرين والاحرار وقد سجل فى « الشورى »

حوادث الثورة السورية عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ وماتلاها من الفورات والانتفاضات السياسية بمصر واقطار العرب، حتى وقعت الحرب العالمية الثانية فكان لاعلانها دوى رهيب ملأالنفوس فى الشرق والغرب قلقاً وفزعاً، وقد سرى فى وادى النيل كثيرمن الوان الدسيسة والوقيعة، أذاعها الارصاد والمضللون كبتاً لحرية الرأى وتنكيلاً بذويها من المجاهدين، لعل الفتنة تفت فى عزائمهم وتشغلهم عن قضايا العروبة والكفاح، وكانت اعين المتربصين تتبع هؤلاء وتنصب عليهم بالحقد والتوعد، وأول من كانت تصيب صاحب « الشورى » لترميه بداهية تطفىء فكرته التى كانت تلقى فى قلوب المحتلين وأعوانهم حمماً، وبخاصة بعد هزيمة فلسطين وافتضاح الذين أضاعوها بخلافهم وخذلانهم لمن افتدوها بالارواح، ففوتوا على الاحرار المناضلين سوائح الخلاص والبطش بالخادعين والاعداء، فضاق المتهمون ومدعو الزعامات بتهكم الطاهر ومقالاته العنيفة التى كشفت عن التضليل و الخطيئات،والناس يومذاك يتقاذفهم القلق والتدليس والاضطراب وقد ازداد وعيهم للحوادث وسرت فيهم النقمة وروح الثورة، وكان الطاهر ينشر المقال تلو المقال فى النقد الصريح والتوجيه السليم، غير عابىء بالمصطفين والمتوسلين بالدس والرياء، حتى ظهر حكم الارهاب وزج الطاهر بالسجن عام ١٩٤٩ مع كثير من الاحرار و الأبرياء الذين كانوا يجاهدون الظلم والاستعمار، فكان غيظ الاستاذ الطاهر من حكام هذا العهد لا يقل عن غيظه من اعداء التحرر والوطنية، ولما ألح عليه المرض فى الحبس والمستشفى آثر الفرار والتنقل فى أرجاء مصر متخفياً تارة برداء بدوى

وقور وتارة بزى معلم أزهرى، وقد تصدت الشرطة السياسية بالاذى لزوجته أم الحسن[1] وسيقت الى السجن تشفياً وإحراجاً، لكن الفرج كان قريباً فقد تغيرت الحكومة وكان رئيسها الجديد عارفاً لجهاد الطاهر وفضله، فضمن له الحرية على الرغم من اعدائه المستعمرين على أن المجاهد الطاهر وقد استرد هذه الحرية الغالية وتحدى الخصوم والناقمين تعهد لرئيس الدولة بالمهادنة والسكينة ريثما تنجلى ايام البلاء.

ولئن وقف نشاطه الصحفي والوطنى لميقات محتوم، فانه عكف على أوراقه فى تلك الفترة يفك الرموز التى كتبها وهو فى السجن، كما عاد الى مفكراته ليستخرج منها صفحات وانطباعات تصور اطواراً مما عاناه فى سعيه وسجنه وما لقيه فى حياته النضالية، لتكون تاريخاً للحوادث المتعلقة بقضية الجهاد ومين شاركوا فيه مخلصين ومستقلين، ولقد استعجل الاديب الطاهر بتصوير تلك الحوادث وتحليلها كما قال فى مقدمة كتابه ظلام السجن « ليضرب الظالمين قبل أن يبرد الحديد».

وفى ذكريات «معتقل هاكستب»[2] دارت صور هائلة للثورة

(١) لهذه الزوجة الذكية المثالية اثر عميق فى جهاد قرينها الطاهر، على ان المجال فى هذا المقال لا يتسع لتعداد مآثرها ولكن لا بد من القول بأنها لبنانية المولد مصرية الثقافة والوطن.

(٢) هاكستب اسم ضابط امريكي مشهور عند قومه، فلما نزل الجيش الامريكي ارض مصر لنجدة الانكليز فى الحرب العالمية الثانية عسكروا فى الصحراء بين مصر الجديدة والسويس وقد سمى المعسكر باسم صاحبهم الضابط هاكستب، واتخذت الحكومة المصرية مبانيه سجناً.

الفكرية والوعى الوطنى فى مصر والبلاد العربية كانت ثمرة التجارب والتمازج بين الاحرار والمكافحين، وفيها صفحات مشرقة وقائمة لمن اخلصوا لله والوطن أو انحرفوا عن الحقيقة والمصلحة العامة، فتلونوا بتلون الايام والسياسة والقارئ المتتبع يحس مرارة فى السطور التى اودعها المؤلف عتاباً وذكرى لصحبه الذين عرفوه فى الجهاد والقوه فى المحن والنزل الخشن، فلما اظفرهم الله بحرية بلادهم ونعموا بالعزة الوطنية نسوا أن يسعدوه معهم بفرحة الاستقلال وجلاء المحتل عن ارضيهم وديارهم، فكان المجاهد الطاهر فى كتابيه هذين قاسياً على من عاتبهم ولامهم، وهذا الامر منه يحتمل افتراضين، اما انه ذكرهم بما صنعوا واعصابه منتفضة وشعوره انف حزين، لما أحس منهم ساعة الحوادث وإما انه كتب دلك على سبيل الذكرى فان كان الاول فحسبه ما صنع، وان كان الثانى فان الحوادث تبدر للقارئ عميقة فى نفس المؤلف، إذا إن الأيام وتغير الاحكام لم يخففا من هو لها وثقلها، لكنه حلل شعوره فى آخر صفحة من « ظلام السجن » حيث قال: « حتى اننى ـ أنا نفسى قد أغير فكرى فيه، وقد يتغير بعض من ذكرت من اشخاص فهذا كله بيد الله، ونحن فى هذه الدنيا لسنا اكثر من شخوص وأشباح تمر وتنطوى ونفنى جميعاً والمحرك باق ».

ومهما يكن شأن هذا المجاهد المؤلف فيما كتب منتقداً آو مستحسناً أو موجهاً وما أعطى التاريخ من ذكريات ومشاهد فى نضاله واعتقاله، وفى حوادثه وتجاربه، فان صراحته فيما ابدى وحلل وناقد

جعلته يعيش فى نطاق من محبين يفهمونه ويفدونه واصدقاء يظهرون غير ما يبطنون وربما خسر مودة بعضهم واكتسب الثقة والتقدير من الشعوب وأعداء لا يتورعون عن التلفيق ضده دساً، وهم أدرى الناس باخلاصه وتفانيه فى الجهاد وثورته على المستغلين، وهذا كله دليل على سمو شخصيته وخلوده فى تاريخ النهضة العربية التى كان من روادها وطلائع الوعى والتحرر فيها، وان احكام القدر العجيبة هى التى سخرته لهذه الرسالة الشاقة وقضت أن يكون على هذه السيرة داعياً الى اليقظة الفكرية والتعبئة الروحية فى الرجال والنساء ليتحقق الانبعاث المرجو والوعى العام، واليوم يعيش الطاهر ناعم البال بما يرى من تحرر الشعوب العربية وسعيها الى الوحدة والإتلاف.

على أن المرء ليعجب للطاقة الكامنة فى هذا المجاهد الحر الذى يبدو فى حديثه ومن بين سطوره كالماء النمير عذباً صافياً، لكنه حين تمسه النار وتشتد عليه يغلى كالماء، فهو فى الحالتين يعطى الخير، ولئن كان أبى النفس قوى الثقافة والوجدان حريصاً على كرامته فان فى طبعه وحياته تواضع العلماء وزهادة المجاهدين، ولن يحاسب الطاهر على صراحته لأنه لا يجرح فيها ولا يقدح، وتعبيره بالقلم أو باللسان ممزوج باللباقة والنكتة، لكنه لو أوتى المسايرة والمكابرة لعاش فى راحة وبحبوحة، ولو أنه أدى رسالته فى الادب لبرزت مواهبة فى النقد والتصوير متجردة مسددة، ولقد آثر الصحافة بقلمه الحر ودرايته الواسعة لشئون السياسة فى الشرق والغرب،

فجال فى ميدانها وكان ولا يزال من فرسانها، مجاهداً فيها للعروبة بما ينفع اهلها ويقيم العثار، ولم تكن صحافة الطاهر يوماً حرفة استغلال وملق للجمهور أوذوى النفوذ، ولم ترفدها جماعات أو حكومات، لهذا توقفت « الشورى » عن الصدور وان بقى ذكرها قائماً وأثرها بعيداً وبقيت صحافتها مرجعاً وثيقاً لتاريخ الجهاد الوطنى وتطور الوعى القومى، وحين تعذر على صاحبها نشرها من جديد عكف على تصنيف مذكراته وانطباعاته وتأليف الكتب التى تصور جوانب من الحياة السياسية ابان النضال القومى للتحرر من قيود الاستعمار، ففى عام ١٩٣٢ نشر المجاهد الطاهر « نظرات الشورى » وقد حوت فصولاً وخواطر عن احوال العالم العربى عامة وفلسطين خاصة، ولما أصدر كتابه « معتقل هاكستب » عام ١٩٥٠ نشر فى الصفحة ٦٦٧ اشارة الى انه تبرأ من « النظرات » وان نفد المطبوع منها لأنه غير رأيه فى بعض من أثنى عليهم فيها إذ كان يحسن الظن فيهم ويعدهم من الأخيار ثم تبين له أنهم ثعالب...

ثم اتبع المؤلف تلك النظرات بكتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » عام ١٩٤٧ وقد اشتمل على سيرة هذا المجاهد القديم الذى يعتز الطاهر بصداقته، وفيه اكثر ما قيل فى تأبينه ومراثيه التى قيلت فى الشرق والغرب، والاستاذ الطاهر يدعو اليوم لتجديد هذه الذكرى بتخليد الفقيد فى كتبه وآثاره.

وفى آخر سنه ١٩٤٨ ظهرت للمجاهد الطاهر «أوراق مجموعة» وصف فيها حال فلسطين قبيل رحيل المحتلين، وكيف كان اهلها يستبسلون فى الذود عنها حتى شردهم الغدر والطغيان.

وعلى مرور الأيام عاود الطاهر الحنين الى إعادة « الشورى» لكن الحكومة لم تسمح له بتحقيق هذه الامنية، فلم يجد بداً من تسريح قلمه فى صحف مصر والعالم العربى والمهاجر التى عرفت جهاده للعروبة والحرية ولا يكاد يمضى اسبوع حتى تقرأ له مقالاً يتعلق بالحوادث الوطنية أو يبصر بالأمور العابرة والشخصيات السياسية الخطيرة، فاذا كتب الطاهر عن قطر عربى جال فى مقاله جولة السابرين فى اعماق القضايا والمشكلات، وما هذا إلا لأنه يعيش فى صميم الحياة العربية متتبعاً وجهة نهضتها، ولم يتفق هذا الأمر إلا لهذا المجاهد الكبير الجدير بلقب المواطن العربى حيثما وجد.

لقد استوطن الطاهر مصر منذ صباه فأحبها وفداها وكافح فيها لحريتها وحرية البلاد العربية فكان له أثر فى الحركة الوطنية وتعبئة الشعور القومى والوعى الفكرى، بل إنه يعد اليوم ممن مهدوا للثورة وجاهدوا من أجلها، وحسبه ما لقيه من الظلم والاساءة فى العهد السابق، وان مصر اليوم بشوق الى الرجل الذى وهب لها عمره واخلاصه مرتقبة عودة « الشورى » بعودته، فهو يعيش بعيداً عنها أهله فيها لهيفاً مشوقاً، فاذا تحدث عن ثورتها ووثبتها كان شديد الغبطة والاعجاب بما أدى رجالها من وطنية وبطولة، وتجوال الطاهر فى البلاد العربية للتعاطف بينها، وبعث المقومات والذكريات لتوثيق الروابط فيه دعامة لهذه الثورة التى يؤديها بقلمه فيكتب المقالات والتعليقات فيما يوضح اهدافها ومجهودها، وذلك فى صحف سورية ولبنان والمهجر.

وأى مؤرخ للصحافة العربية والجهاد الوطنى القديم والحديث لابد أن يذكر الدور الذى قامت به « دار الشورى » بمصر اذ كانت هذه الدار أول سفارة عربية حرة لم تعرف قيود الدبلوماسية ولا مجاملة التمثيل، تتلقى بالحفاوة والتكريم كل عربى يؤم القاهرة على اختلاف الديار وبعدها، فيجد اخوانه ومن يشوقه التعرف اليهم من رواد النضال واعلام الفكر والادب، حتى لو أن زائرين احدهما من شرق العرب والآخر من غربها هبطا مصر على غير ميعاد، فانهما يلتقيان حتماً بدار الشورى على خير ما ترجو العروبة والثقافة والمودة.

وحين يكتب التاريخ العربى الجديد حوادث التطور والانبعاث سيكون لهذا المجاهد الكبير الذى نذر حياته للحرية، دون أن يبتغى جزاء أو منالة، ذكر خالد على الأيام فى صفحات هذا التاريخ العتيد.

* * *